الرحمة بالحيوان

للأستاذ وديع فلسطين

غابت الرحمة بالحيوان عن العقول فى هذه البلاد بدرجة مثيرة للخواطر . وترجع أسباب ذلك إلى عوامل سنأتى على ذكرها . ويجدر قبل الاستطراد إلى سرد تلك الأسباب أن نذكر أن القوامين على الماشية والدواب ، والذين يتولون أمورها و يسخرونها هم طبقة الفلاحين ومن على شاكلتهم من « العربجية » . وهذه الطبقة لا تكاد تميز بين الصالح والطالح ، ولا تستطيع أن تدرك أن للحيوان عليهم حقوقا منها الشفقة والرعاية والعلاج ، فأولئك القوم أميون لا يعرفون القراءة ولا يلمون بالكتابة ، وقد ختمت الجهالة على عيونهم فحجبت عنهم حقائق بدهية ، وأصبحوا يعتقدون أن فى تسخير الدواب كسبا لها ، وأن الحيوانات لاتشعر بالطمأنينة إلا ممزوجة بالكد القاتل ، ولا تستعذب الراحة إلا بعد ضنى.

والأسباب التى إليها يعزى تقصير الشعب فى الرحمة بالحيوان هى :

أولا — الجهالة الغاشمة .

فالزراع والفلاحون قوم بسطاء ضربت عليهم المسكنة وأمسكتهم العيلة فأمسوا لا يعبأون بشىء ، ولا يهتمون بحاجات أجسادهم الضامرة الذابلة . إن وقفوا على زاد التهموه دون تبصر فى قذارته ، وإن لم يصادفوا طعاما أكلوا كسرة من خبز الذرة وجعلوا إدامهم جبنا « قريش » أو بقايا أسماك مملحة « ملوحة » . فإذا كانت تلك حالتهم مع أنفسهم ، فما بالك بحالتهم مع حيواناتهم وماشيتهم ؟ و إذا كانوا يقسون على أنفسهم ويسخرون أجسادهم من مطلع الغزالة إلى مغيبها ، فكيف تنتظر منهم أن لا يقسوا على دوابهم ويحملونها أضعاف أضعاف ما تحتمل .

إنها الجهالة ممزوجة بالحاجة ، والعتم متبوعا بالفاقة . فمن أولئك الفلاحين يدرك أن الدابة لها حمولة لا يصح تجاوزها ؟ وكم من فئة « العربجية » يعرفون أن فى القاهرة جمعية للرفق بالحيوان أنشئت منذ عام ١٨٩٤ لدفع القسوة عن الحيوان وعلاج المرضى منه ؟ وكم من هؤلاء أو أولئك يعرفون أن معاملة الحيوان بالعنف جريمة يعاقب القانون عليها ؟ أخشى أن يكون عددهم لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة أو الاثنين إن شئنا تفاؤلا .

فالجهل بالقانون ، والجهل بالقراءة والكتابة ، والجهل بأبسط قواعد الرأفة ، اجتمعت جميعها وتضافرت لتؤلف أول إتهام فى هذه القضية ، قضية القسوة على ذلك الحيوان .

ثانيا : رقابة لا تحس بها .

عشت فى القاهرة ستة عشر عاما وطوّفت شوارعها سارا على قدمى ، فلم ألمح فى هذه الفترة الطويلة جنديا واحدا يستوقف عربة نقل ويسوق ١٠٠٠ إلى نقطة البوليس منهما إياه بالقسوة على الحيوان . ولقد رأيت بعينى رأسى دواب يعييها الحمل تسقط فى قارعة الطريق تهث مستجدية ، وشهدت دواب تتزلق فى الوحل لفرط إجهادها . فأين هى الرقابة القوامة على كفالة حقوق الحيوانات ؟ وأين الاشراف الذى يرمى إلى الحد من استغلال الإنسان للحيوان؟ إن شوارع القاهرة وسواها من المدن تعج بحيوانات جريحة ، وأخرى هزيلة ، فأين رجال الضبط ينقلونها إلى دور جمعيات الرفق بالحيوان ؟

هناك رقابة ، لاشك فى ذلك ولكنها رقابة ثانوية ، رقابة لا تحس بوجودها ولا نلمس أثرها . وقد نشرت " الأهرام " فى عددها الصادر فى يوم ٢٣ يونيه سنة ١٩٤٤ نبأ مؤداه أنه أقيمت فى شهر مايو من العام نفسه ١٤ قضية من مخالفات استعمال القسوة حكم فيها بغرامات تتفاوت بين ٢٥ و ٥٠ قرشا . أربعة عشر قضية فقط فى مدينة القاهرة فى شهر واحد ! هذا يدل على مقدار الرقابة فى عاصمة البلاد ، حيث تستغل الدواب أسوأ استغلال وحيث يفلت من يد العدالة عدد كبير من الجناة ، فيهم المتعمد وفيهم الجاهل .

ثالثا : أين مساق الحيوان ؟

إذهب إلى القاهرة ، وجب جنباتها ، وزر ميادينها ، وطوّف فى ربوعها ، فكم مسقاة ماء للحيوان تجد ؟ لن تصادف سوى عدد قليل ، ولن تجدها مليئة بالماء . وإذا وجدت الماء فى مسقى ، فإما أن تجده آسنا أو عكرا . وقد كان ذلك مدعاة لأن يتبرع سعادة صالح عنان باشا بألف من الجنيهات المصرية لتنفيذ مشروع مساق الحيوان ، ثم عاد سعادته فتبرع بجميع نفقات المشروع حال وضعه موضع النفاذ .

والحيوانات المجهدة ، وخاصة فى الصيف القائظ ، تحتاج إلى رى دائم يخفف عنها وطأة الحر ، ويبرد جوفها الذى يتصبب كمرجل القاطرة . ولكن مصر بخلت على الدواب بحقها حتى فى الماء .

رابعا : الفقر .

وثمة سبب آخر يحمل الفلاحين على القسوة على الحيوانات : الفقر . فالفقر هو الحجر الذى يصطدم به كل إصلاح فى مصر ، وهو سبب المشكلات التى تجل عن الحصر فى هذا الوادى الخصيب . الفقر الذى يغل يد الفلاح فيضطره اضطرارا إلى تكبيد الدواب ما

لاطاقة لها به . لو كان لديه المال لاستطاع أن يبتاع حمارين بدلا من واحد ، وزوجين من البغال بدلا من زوج ، ولأمكنه بذلك ان يقسم العمل عليها فلا تنهك دوابه أو تجهد إنه الفقر الذى يدفع الفلاح دفعا إلى محاولة استخلاص أكبر قدر من الطاقة الحيوانية فى أقل زمن ممكن ولو أدى ذلك إلى سقم الحيوان وكلاله . المرض ، لايفهمه الفلاح ، ومادام الحيوان يستطيع أن يقف على سيقانه وأن يأكل ما يقدم اليه ، فانه يستطيع كذلك أن يجر أضخم مركبات النقل ، ويحمل قناطير السلع ، ويدير الساقية طوال النهار ، وأحجار الرحى فى بعض القرى ولدساكر .

خامسا : فقدان الحيوان بعض قيمته .

نظرة إلى الماضى نرجعها فماذا نرى ؟ نرى أرضا زراعية شاسعة ممتدة الأطراف على ضفتى النيل ، لاترابط ولاتتصل إلا بوسائل النقل الحيوانية وأعنى بها : الدواب . كان المصريون منذ قرن أو يزيد يستخدمون الحمير والخيل والإبل فى تنقلاتهم وسفراتهم ، فكان الحيوان يحتل مكانه فى كل بيت : بيت الفقير وقصر الموسر . وكان كل فرد يحرص على دابته حرصه على فرد من أفراد أسرته أو عضو من أعضاء جسمه . وكانت عنايته به تكاد تفوق عنايته بنفسه وصغاره ، نظرا لمكانة الدابة السامية . أما الآن ، فقد انتشرت وسائل المواصلات المختلفة ، وأصبحت الحمير والخيل وسواها من حيوانات الجر والحمل ، أداة ثانوية فى حياة سكان المدن .

هبطت قيمة الحيوان عما كانت عليه من قرن ، فأهمله عدد كبير ممن كانوا يحملونه وسيلة انتقالهم ، وشرع أصحاب الأعمال الكبيرة يؤثرون السيارات والقطر فى نقل متاعهم وبضائعهم ، لسرعتها وحسن إعدادها وقلة نفقاتها . أدى ذلك تدريجا إلى سد باب الرزق فى وجوه عدد كبير ممن كانوا يعيشون على نقل البضائع بين جنبات البلاد ، وأصبحوا مضطرين إلى قبول أقل أجر يعرض عليهم نظير قيامهم بخدمات ترهق دوابهم .

ثم بدأ بعض أصحاب الضياع الكبرى فى مصر يدخلون الآلة فى الحقل ، فأضحوا والحالة كذلك ، فى غنى عن حيوانات النقل يبيعونها فى الأسواق لراغبى شرائها .

وهكذا بدأ الحيوان يفقد مقامه ، بينما استطاعت الآلة أن تنال القدح المعلى من عطف أصحاب المزارع والراغبين فى الانتقال ، وخسر الحيوان هذا العطف وأخفق إلى حد ما محاولة إستعادته .

والقسوة على الحيوان ، لا تكون بتحميله ما يزيد على طاقته فحسب ، بل تكون بضربه بالسياط ، وحرمانه من العلاج والراحة والعلف ، وهذه أمور يجب أن يصان الحيوان منها . فالحيوان يحس الألم ويشعر بالتعب والاجهاد ، ويتحرق إلى الماء عطشا ، ويحتاج إلى الراحة ، ولكن أنى له بجميع هذه الحقوق فى بلد لم تستطع أن تكفلها لسكانها وقاطنيها من البشر ؟

فما هى النتائج إذن التى ترتبت على هذه القسوة ؟ وأى أضرار نتجت عنها ؟

أولا : إنتاج لبنى قليل لا يفى بحاجة البلاد . فالأبدى التى تحلب الماشية أشطارها ، لا تقرب لبنها ولا تطعم الزبدة المستخرجة منه ولا الجبن بمشتقاته وأنواعه ، هذا "القريش" وهو حثالة الجبن . " ثم إن معظم الأنواع الموجودة فى مصر من اللبن رديئة إذا قيست بالأنواع الممتازة فى البلاد الزراعية الأخرى "[1] .

ولو علمنا أن اللبن أجود غذاء فى مصر لأنه يحوى جميع العناصر الغذائية الصالحة ، لأدركنا عظم الخسارة التى تمنى بها بلادنا من جراء تهاونها فى العناية بماشيتها والقسوة عليها فى أعمال السخره المضنية . " والواقع أن استخدام الجهد البدنى للماشية هو أشد الوسائل خسارة فى الاستغلال . فالفلاح يستخدم البقرة أو الجاموسة فى حرث الأرض بالمحراث والرى بالساقية وفى درس المحصول بالنورج وإلى عهد قريب جدا كان يستخدمها فى طحن الحنطة والبذرة فى مطاحن ثقيلة رديئة ... فالفلاح المصرى الفقير معذور فى استخدام الجهد البدنى للماشية على هذا النحو الخاسر لأن فقره يحول بينه وبين استخدام الآلات "[2] .

ثانيا : نتاج لحمى غير جيد .

والنتاج اللحمى للماشية المصرية ليس جيدا لأن الإجهاد المضنى والقسوة القاسية ، أديا إلى هزال الماشية وإلى هبوط المستوى الغذائى فى لحومها . واضطرت مصر ، إزاء هذا القصور الجسمى ، إلى استيراد الماشية بأنواعها من الخارج . وقد بلغت قيمة الأغنام التى كانت تستوردها من الخارج قبل الحرب ثمانين ألف جنيه سنويا ، وبلغت قيمة ما كانت تستورده من الماشية والجاموس سبعين ألف جنيه ، ومن الجمال مائة وخمسين ألف جنيه .

---

(١) راجع مقال " الثروة الحيوانية الضائعة " مجلة الشؤون الاجتماعية مارس سنة ١٩٤٣

(٢) راجع المصدر السابق .

ثالثا : سلالة ضعيفة هزيلة :

منذ اليوم الذى فيه افتقد الحيوان رحمة الإنسان فلم يجدها، منذ ذلك اليوم والإنسان الحيوانى فى هبوط نوعى وعددى ، مما حدا ببعض المشتغلين بالدراسات الحيوانية إلى التفكير فى تحسين سلالة الماشية المصرية عن طريق تلقيحها بحيوانات مستوردة منتخبة ولو أن الفلاح المصرى عرف كيف يعنى بماشيته العناية الصحيحة اللازمة ، ولو أنه أدرك نتائج القسوة على الحيوان لاستطاع أن يصون قواها و يكسب نسلا قويا ممتازا .

فكيف إذن نعالج الموقف الحيوانى فى مصر ؟ وكيف نستطيع أن نقى الحيوانات شر القسوة والإهمال ؟ وكيف نستطيع أن نصلح ما أفسدته الأيام فتصبح ثروتنا الحيوانية فى مرتبة لا تقل عن مرتبة ثروتنا الزراعية ؟

إن الإصلاح المرجو لن يكون صادرا إلا عن الفلاحين ومن هم على شاكلتهم ممن يقومون بتربية الحيوان فيجب علينا أول كل شىء أن نعلم الفلاح حتى يصير واعيا بأحوال الحياة ، مدركا للخير والشر . فإن الفلاح لا يزال يرسف فى أغلال الجهل الثقيلة القاسية ، وما فتئ يحتاج إلى إرشاد مقوم يفتح عينيه على حقائق الأمور ، و يزيل عن بصره و بصيرته غشاوة الجهالة الغاشمة .

والتهذيب ، إما أن يكون مباشرا ، و إما أن يكون غير مباشر . فالتعليم المباشر يكون بعقد فصول يحضرها الفلاحون لإرشادهم عن وسائل العناية بماشيتهم وزراعتهم وأجسامهم أما التعليم غير المباشر ، فيمكن للفلاح أن يكتسبه من المعارض النموذجية التى تقام ، والمباريات التى تعقد لاختيار أفضل أنواع الماشية ومكافأة أصحابها .

و إن الوسيلة الوحيدة لتحقيق التهذيب المباشر هى تعميم الدراسة الزراعية فى المدارس الإلزامية والمدارس القروية الابتدائية ، فيصبح التلاميذ على علم بأضرار الشدة والقسوة على الحيوانات و بحقوق الميدان التى يجب صونها .

" فعلى الحكومة أن تنهض بالدعاية بين الشعب ، فالشعب المصرى أغلبه لا يقرأ ولا تتغلغل الثقافة الزراعية الى قرارة نفسه ، فالدعاية أمر واجب على أن تكون بسيطة بقدر تفكيره البسيط أيضا حتى تنتج أثرها . ولعل الحكومة تكون قد خطت خطوة صحيحة عند تنفيذها مشروع المراكز الاجتماعية ووضع خبير زراعى فى كل مركز يرشد الأهالى إلى مايجب أن يكون والى الوسيلة العملية مع إقناعهم بكل ما يقول لأننا نطمع فى الأخذ بيد هذه

المراكز الاجتماعية والاكثار منها بعد الحرب ، لن نطمع فى وضع سياسة ثابتة تؤدى الى تعميمها فى القطر كله فى مدى خمس سنوات من أول سنى السلم القادمة "[1] وسوف يجد الفلاح فى هذه المراكز الاجتماعية ما يحتاج اليه من الارشاد للعناية بحيواناته إبان مرضها ، والشفقة عليها من السخرة والعمل المرهق .

وثمة وسيلة أخرى لإرشاد السذج من أصحاب الحيوانات والمعنيين بها . فيمكن للحكومة ولجمعية الرفق بالحيوان القيام بطباعة منشورات مصورة سهلة اللغة سلسة الأسلوب يستطيع العامى أن يستوعب محتوياتها عقب قراءتها أو سماعها من أحد زملائه . كذلك يمكن اتخاذ المذياع وسيلة لنشر مبادئ الرفق بالحيوان فى القرى والدساكر ، وتوجيه أنظار الفلاحين الى ما للأطباء البيطريين من مقدرة على معالجة الحيوانات المريضة والمشرفة على الموت . وذلك لأن الفلاحين ما فتئوا يشكون فى قدرة الأطباء على علاج الحيوانات ، وما برحوا يؤمنون بالقدرية التى تسرى على الحيوان سريانها على الانسان .

ولما كانت الحيوانات المصرية هزيلة البدن ، قليلة الانتاج ، بفعل القسوة والاهمال والسخرة ، وجب علينا أن نحاول تحسين أنواع هذه الحيوانات باتباع سياسة " التلقيح الانتخابى " ، أى سياسة استيراد أجود أنواع الحيوان من الخارج وخلطها بالحيوانات المصرية لتحسين سلالتها وإعادة القوة البدنية التى كادت تفقدها بفعل ما تقوم به من جهد جهيد فى فلاحة الأرض .

وكذلك يجب تشديد المراقبة فى شوارع القاهرة والمدن الكبرى حتى يطمأن الى إن عربات النقل التى تجرها الدواب ، لم يبالغ فى تكديسها بالبضائع ، مع تشديد عقوبة السائق الذى يعود إلى تحميل الحيوان ما يزيد على طاقته ، ليكون عبرة لغيره . وإنى أرى أنه يحسن مجازاة أصحاب البضائع الذين يقبلون أن ينقلوا بضائعهم على عربات النقل بإفراط دون شفقة بالحيوان .

كذلك يحسن بالحكومة عدم الترخيص " لعوبجى " بمزاولة هذه المهنة مالم يتعهد بأن يحرص على معاملة الحيوان معاملة لا شدة فيها ولا تحامل ، ومالم يستوثق الموظفون المختصون من أن السائق ملم بالقوانين التى تعاقب على القسوة على الحيوان .

---

(١) راجع مقال " وسائل تنمية الثروة الزراعية فى مصر " للدكتور أحمد فاضل الخشن — مجلة الشئون شهر ديسمبر سنة ١٩٤١

ولا يغيب عن أعين الحكومة أن مساقى الحيوان تحتاج إلى بعض رعايتها . فقد نشرت جريدة منبر الشرق فى عددها الصادر يوم الجمعة ١٤ يوليه سنة ١٩٤٤ ما نصه "توجد بمجرك بورسعيد مساقاة للحيوان يستعملها الإنسان كذلك، ولكنه لا يستعملها فى الشرب فقط بل إن الأمر يضطره فى بعض الأحيان إلى التبول بجانبها متخذا من جدرانها سترا " وهذه حالة يؤسف لها فى ثغر مصر الثانى .

ولما كان عدد المساقى قليلا، وجب زيادتها والعناية بها حتى تكون صالحة لشرب الحيوان فى أى وقت .

* * *

ولو استطعنا تحقيق جميع هذه الرغبات أمكننا أن نقضى على داء القسوة على الحيوان ولأصبح فى مقدورنا أن نكفل للعجماوات حقوق الرحمة والرأفة والعلاج .

وديع فلسطين

المحرر بالمقطم — القاهرة

ولو كانت الأرزاق تعطى على الحجى هلكن إذا من جهلهن البهائم !

" المتنبى "